الآراء الـــواردة في الـصفحـة تـعبر عـن وجـهـات نـظـر كـتـابـهـا ، وقـد لاتـتـفـق بـالـضـرورة مـع وجـهـة نـظـر الجـريـدة

على هامش الصراحة

كل خميس:

استذكاراً لصراحة (أبو كاطع)

■ إحسان شمران الياسري

نستعير في هذا العمود بعض ما كتبه الراحل (شمران الياسري- أبو كاطع) قبل أكثر من ثلاثة عقود، لنُريح الناس من الصخب الإعلامي، وليستذكروا سخريته ممن كانوا مسؤولين عن خلق المعاناة لهم.. فالترويح عن الناس جزء مهم من تعزيتهم عما ينقصهم، وكان الراحل رائدا في إبهاجهم.. وستكون الاستعارة دون تلميح بصلتها بزماننا، بل يكفي أن يستمتع القارئ بها، ويخمّن (رباط الحجي):

معاش عيدان !!

في غمرة الحوار الصحفي، او معمعات البحث عن افضل الحلول لأزمة النقل، بدت المسؤولية عن الأزمة مثل (الكرة الطائرة) بين أيدي المسؤولين والمتخصصين وحتى الصحفيين، وكل يتمنى رد الكرة الى مرمى الخصم، وسعيد من (كبس) كبسة صاروخية (قوية).

مؤسسة النقل (نفضت زيقها) من المسؤولية، وكانت حججها مقنعة، الى حد ما بسبب من انها قيد الإنشاء والتأسيس والتشكيل، وهي اسم رنان اكثر من واقعه. وقد وهبت، كما وهب ابو دلامة، ألف جريب عامره وألف جريب غامرة..

وقال أبو دلامة للخليفة: (ما دامت الغامرة هي الارض التي لا نبات ولا ماء فيها، فاني اهبك يا أمير المؤمنين جميع فيافي بني أسد).

قيل لمؤسسة النقل خذي صورايخ الثورة والشعلة والبياع وكل صورايخ بغداد وتورناتها، فبلغ عدد ما تملكه من السيارات ١٧ الف (سبعطعش.. سبو طعيش ألف).. انه رقم مذهل مدهش، انبهرَ به، حتى السيد مدير عام مصلحة نقل الركاب، فقال في مؤتمره الصحفي: (ان المسؤولية لا تقع على كاهل المصلحة وحدها فهناك مؤسسة النقل ايضا وهي تملك في الواقع ١٧ الف سيارة نقل في العاصمة، مع ان الباصات العاملة – في مصلحة نقل الركاب – لا تزيد على ٤٣ باصاً..).

وحين سمعها خلف الدواح عقب ضاحكا:

ذيج السنة، عيدان الحسن اشتغل (حدقجي) ابيت المتصرف.. وعكَب شهرين، طلب رخصة، وإجه يزور الجرية.. نشدوه جماعتنا:

– اشكثر معاشك يعيدان ؟

جاوبهم:

نعمة.. خير واجد – ماعوزها غير العافية والامان...

آنه والمتصرف يطلع معاشنا ميتين وسبع دنانير بالشهر !

الـطـاقـة وتـشـكـيـل المـسـتـقـبـل

أوس عز الدين عباس

التفكير والتأمل حول المستقبل يبدآن إلى حد كبير من خلال إعادة النظر إلى الماضي ، أي ماضي المجتمع والثقافة ، للتعرف على القوى والعوامل التي تساعد على استمرار وجود ذلك المجتمع وتلك الثقافة ، وهما يلعبان دورا أساسيا في نموهما وتطورهما ، وهما يهيئان الأرضية التي ترتكز عليها الأوضاع الجديدة والناجمة عن تلك التطورات ، وكانت الطاقة دائما إحدى هذه القوى والعناصر التي انتبه إليها كثير من العلماء والمفكرين ، فرصدوا أشكال الطاقة المتغيرة على مر العصور وعلاقتها بدرجة التخلف والتقدم وأسلوب الحياة المرتبط بتلك الأشكال ، وذلك على اعتبار إن موضوع الطاقة هو موضوع اجتماعي وثقافي لارتباطه بحياة الفرد والمجتمع .

وقد انتبه علماء الأنثروبولوجيا في أواخر القرن التاسع عشر إلى هذه العلاقة ، وأدركوا عمق العلاقة بين توفير الطاقة واستهلاكها من ناحية ، والمستوى التكنولوجي لها من الناحية الثانية ، ودرجة التقدم الحضاري لها من الناحية الثالثة ، فالطاقة والتكنولوجيا تتداخلان معا في علاقة ترابط وتفاعل قوية ، على اعتبار إن التكنولوجيا تعتمد كليا على الطاقة ، وإن عدم السيطرة على الطاقة وتوجيهها لمصلحة المجتمع قد تكون لها آثار سيئة ، ويكفينا أن نتذكر كيف إن ارتفاع درجة الحرارة التي اجتاحت أوروبا في عام (٢٠٠٣) قد أدت إلى وفاة حوالي (٥٢٠٠٠) شخص نتيجة الإخفاق في التحكم بالطاقة بالشكل المناسب والوقت المناسب .

وقد كان عالم الأنثروبولوجيا الأمريكي الكبير (ليزلي وايت) من أوائل العلماء الذين كتبوا في هذا الموضوع ، مميزا بين مراحل التطور البشري عبر التاريخ على أساس نوع الطاقة المبذولة ، وبالتالي تبين العلاقة بين درجة التقدم ونوع الطاقة وطبيعة التكنولوجيا الناجمة عن تلك الطاقة ، وليس هناك شك في إن هذا العالم كان متأثرا في ذلك الوقت بالمفكر الأمريكي (لويس هنري مورجان) وكتابه الذي أحدث ضجة هائلة وقت صدوره، وهو كتاب (المجتمع القديم)، والذي كان سببا رئيسيا في وضع القيود على تدريسه في الجامعات الأمريكية لعقود طويلة ، وقد انعكس ذلك كله على حياة (ليزلي وايت) لبعض الوقت ، على اعتبار إنه من أشد أنصار التطورية الجديدة .

ولقد ميز (ليزلي وايت) في هذا الصدد بين خمس مراحل على أساس التفاوت في استخدام الطاقة ، أو على الأصح الاختلاف في نوع الطاقة المبذولة والمصادر التي تستمد منها تلك الطاقة ومدى فاعليتها في إشباع احتياجات المجتمع ، ففي البداية كان الإنسان يستخدم قواه الفيزيقية والعضلية في العمل ، ثم أعقب بعد ذلك مرحلة كان يستعين فيها بطاقة الحيوانات المستأنسة قبل أن يعرف في المرحلة الثالثة طاقة النبات المرتبطة بظهور الثورة الزراعية الأولى ، والتي انتقل منها إلى الاستعانة بالطاقة المتولدة من بعض المصادر الطبيعية ، والتي تحتاج منه إلى بذل الكثير من الجهود لاستخراجها من باطن الأرض ، والمتمثلة في الفحم وقيام الثورة الصناعية الكبرى ، ثم العثور على البترول ، وذلك قبل أن تجيء المرحلة الخامسة والأخيرة والتي يعيش فيها الإنسان المعاصر الآن ، وهي مرحلة الطاقة النووية ، والتي لم تستخدم لحد الآن على الوجه الأمثل ، والتي يبدو أنها تهيئ الطريق لظهور مرحلة جديدة لم يتم التكلم عنها كثيرا ، ولكنها تثير خواطر المفكرين الآن ، لأنها هي التي سوف تحدد صورة المجتمع الحديث وثقافة وإنسان الغد .

وقد أفلح في دفع نظرية التطور الثقافي خطوات كثيرة إلى الأمام ، على الرغم من ميل معظم أنثروبولوجيي القرن العشرين إغفالها أو حتى التنكر لها بعد ظهور النزعة الوظيفية في كتاباتهم وانتهاء النزعة التطورية، والتي سيطرت على فكر القرن التاسع عشر، وأفلح في ترجمة نظريته إلى معادلة يقيس بها درجة التطور الثقافي والاجتماعي، وذلك حسب نوع وكمية الطاقة المستخدمة ، وبالتالي نوع التكنولوجيا المرتبطة بذلك، وتظهر هذه المعادلة على الشكل الآتي :(C=E.X.T)، على اعتبار إن (E) هي الطاقة ، أو مقدار الطاقة التي ينتجها الفرد الواحد ويتحكم فيها ويستنفدها خلال العام الواحد أو على مدار السنة الواحدة ، مضروبة في (T) وهي التكنولوجيا ، أي مدى كفاءة الآلات المستخدمة في تسخير تلك الطاقة والتحكم فيها واستغلالها في سد احتياجات المجتمع ككل ، بينما ترمز ((C)) إلى الثقافة، وبالتالي إلى درجة تقدم المجتمع وأسلوب الحياة ونوع الأنشطة السائدة فيه ، والتي تعبر عن ذلك التقدم، والنتيجة التي يخلص إليها (وايت) هي إن تحكم الإنسان بالطاقة هو الذي يحدد درجة تقدمه، فالتكنولوجيا إذن هي محاولة لحل مشكلات الوجود واستمرار الحياة ، ومن هذه الناحية وفي حدود هذا الفهم فإن هذه المحاولة تعني في آخر الأمر ضرورة الحصول على قدر كاف من الطاقة وتسخيرها لسد احتياجات البشر بصورة عامة، وإنه كلما ارتفعت وزاد مقدار الطاقة التي يحصل عليها المجتمع مع ارتفاع مستوى كفاءة استخدامها، أفلح ذلك المجتمع في تحقيق مستوى أعلى من التقدم والتميز على غيره من المجتمعات، وهذا هو المعيار الحقيقي الذي يجب أن يقوم عليه تصنيف المجتمعات الإنسانية كلها وخلال كل مراحل التاريخ من ناحية ، وتصنيف المجتمعات الحالية من الناحية الثانية ويلخص ((وايت)) نظريته بقوله:((إن القانون الأساسي للتطور الثقافي هو إن الثقافة تتطور وتتقدم تبعا لزيادة حجم الطاقة التي يتم التحكم فيها بالنسبة للفرد الواحد في السنة الواحدة ، وتبعا لكفاءة الوسائل الآلية التي تؤدي إلى تفعيل تلك الطاقة))، ولذلك فإن التقدم والتطور يتأثران بمستوى ونوعية وكفاءة ودقة الأساليب الآلية التي يتم عن طريقها التحكم في الطاقة وفي تفعيلها ، وتبعا لازدياد حجم الطاقة المستخدمة ، فإن هذه النظرية تعتبر العامل التكنولوجي فيها أهم عنصر في عملية التطور الاجتماعي المعقدة .

وقد استغرق التطور البشري مئات بل آلاف القرون منذ ظهور الإنسان الأول ، إلى أن وصلت الحضارة إلى ماهي عليه الآن ، وذلك بفضل الجهود المتواصلة التي بذل فيها البشر كثيرا من الطاقة وبأشكالها المختلفة ، حتى وإن لم يدركوا طبيعة تلك الطاقة ، ولذلك فالسؤال الذي يشغل بال الكثيرين الآن هو : ماذا سيحدث لهذه الحضارة ؟ بل وللجنس البشري بوجه عام إذا مانضبت المصادر المعروفة للطاقة ؟ ، وليس من شك في إن هذا الهاجس يثير القلق الآن وعلى المستوى العالمي ، وإن كان بعض المفكرين يتكلمون عما يسمونه بـ ((أسطورة)) نضوب مصادر الطاقة المختلفة ، وإن الدول الكبرى هي التي تشيع هذه الأسطورة لأسباب سياسية بالمقام الأول ، وإن أمريكا بالذات تقف وراء هذه الأسطورة ، لأن معدل استهلاك الفرد الأمريكي من الطاقة على مدار السنة يفوق معدل الاستهلاك العالمي بخمس مرات ونصف المرة ، بل إن هناك من يتساءل عما سيكون عليه الوضع بعد عقود قليلة من الزمن إزاء التزايد السكاني الرهيب ، وخاصة إذا ما ارتفعت معدلات استهلاك الطاقة على المستوى العالمي بحيث تقترب من المعدل في أمريكا ،وإن هذه النظرة التي تسيطر على تفكير الكثيرين من علماء الفيزياء والبيولوجيا وكذلك المهندسين ، فإنها تجد بالمقابل من يبشر بأن عالما جديدا تماما وبديلا إلى حد كبير عن عالمنا الراهن أخذ في التشكل الآن ، وإن ثمة خططا كثيرة ومدروسة ، ترتكز على أفكار ورؤى عميقة حول إمكانية التوصل إلى مصادر مختلفة لأنواع عديدة من الطاقة البديلة ، بحيث يمكن الاستغناء عن الاقتصاد القائم على مصادر الطاقة التقليدية كالفحم والبترول ، وإن ذلك سوف يتحقق خلال العقود القريبة المقبلة ، كما إن علماء تكنولوجيا الطاقة يشعرون بالتفاؤل حول المستقبل ، ويرون أن التغييرات التي يصعب تصور مداها الآن سوف تؤدي إلى قيام ذلك العالم الجديد والفريد من نوعه ، نتيجة التوصل إلى مصادر للطاقة المتجددة أو المستدامة والتي سوف تحل محل المصادر التقليدية الحالية المهددة بالنضوب والاستنزاف ، وإن كان الواقع الحالي يقول إنه لايوجد لحد الآن بديل حقيقي يمكننا الاعتماد عليه في تحقيق استمرار الحياة بالمستويات والمعايير الحالية ، وإن مقولة احتمال اختفاء الحضارة الحالية باختفاء مصادر الطاقة التقليدية التي يقوم عليها الاقتصاد العالمي الآن هي مقولة فيها قدر كبير من الصدق والواقعية ، وإن كان ((قانون وايت)) يجب أن يؤخذ بالجدية الكافية ، بالرغم من صدوره من عالم أنثروبولوجي ، مفروض فيه أنه بعيد بحكم تخصصه عن الحديث في المجالات العلمية الدقيقة ، وهم في ذلك ينسون نقطة الانطلاق في تفكير ((وايت)) وأمثاله من الأنثروبولوجيين، والذين يعتبرون مشكلة الطاقة مشكلة اجتماعية وثقافية في المقام الأول، وليس من شك في إن ((وايت)) يعتبر أول عالم أنثروبولوجي تكلم بثقة ووضوح عن قوانين ((الديناميكا الحرارية)) في الدراسات الأنثروبولوجية ، لدرجة إن هناك من يصفه بأنه ((رسول القانون الثاني إلى الأنثروبولوجيا)) ، وكتابه المهم الذي يعتبر من كلاسيكيات النظرية الأنثروبولوجية في التطورية الجديدة ، وهو كتاب ((علم الثقافة)) ، والذي يستدل من عنوانه على اتجاهه في دراسة الثقافة والمجتمع ، حيث يصف الثقافة بصراحة بأنها ((علم)) ، وإنها يجب أن تدرس على أساس قياس استهلاك الطاقة الذي يشير إلى درجة التقدم ، وهذا هو أساس ماأصبح معروفا في الأوساط الأنثروبولوجية باسم ((قانون وايت)) ، وإن كان قد تجاوز حده المعين من ذلك التقدم التكنولوجي ، وقد تكون له نتائج عكسية على نمط الحياة والعلاقات العامة بين البشر وأنماط القيم المتوارثة لديهم .

والسؤال الذي يلح الآن على أذهان الكثيرين من العلماء والمفكرين ورجال السياسة بوجه عام هو : ((كيف يمكن توفير الطاقة اللازمة لجميع سكان كوكب الأرض الآن وفي المستقبل بحيث تغطي جميع احتياجاتهم المتزايدة ، مع عدم إلحاق الأذى والدمار بالبيئة ، وخاصة في الوقت الذي يواجه فيه العالم الآن الكثير من التحديات الناجمة عن التغييرات المناخية والمخاوف من تلوث البيئة ؟)) ، وليس من شك في إن العجز عن التغلب على هذه الأوضاع الصعبة والتوصل إلى مصادر جديدة للطاقة النظيفة ، أيا مايكون معنى هذه الكلمة ، سوف تنجم عنه آثار اجتماعية واقتصادية وسياسية خطيرة وعلى المستوى الدولي ، وقيام اضطرابات داخلية في الكثير من مناطق العالم ، وكذلك تغيرات في أساليب الحياة المختلفة ، والتي قد تؤدي في آخر الأمر إلى الصراع المسلح والحروب على مصادر الطاقة المتناقصة.

وعلى أي حال ، فإنه ليس ثمة مفر أمام المجتمع الإنساني من أن يتحول إلى مصادر أخرى للطاقة ، أو أن يعمل على تخفيض المعدلات الحالية لاستهلاك الطاقة بشكل درامي ومحسوس ، وأن يتحمل المصاعب والمتاعب التي سوف تترتب عليها ، أو أن يفلح في العثور على مصادر جديدة لاتنضب بمرور الزمن ، ويمكن ضمان الاعتماد عليها حتى في المستقبل غير المنظور ، كما هو الحال بالنسبة لاستخدام الطاقة الشمسية أو طاقة الرياح أو طاقة أمواج البحار والمحيطات ، وكلها احتمالات تراود الخيال البشري الإبداعي في محاولاته المستميتة للخروج من الخطر الذي يحيط بالحضارة الإنسانية إذا نضبت مصادر الطاقة الحالية قبل الحصول على البديل الأكثر كفاءة ونظافة والأقل تكلفة ، وخاصة بعد التردد في الاعتماد على الطاقة النووية في الكثير من الأوساط ، وذلك لارتفاع تكاليفها وعدم الوثوق تماما من درجة الأمان الذي يتحقق مع استخدامها .

وقد تكون هناك بدائل جاهزة ، أو يمكن بقليل من الجهد تذليلها واستخدامها بفعالية وأمان ، ولكن تقف دون ذلك اعتبارات أخلاقية وإنسانية ، كما هو الوضع الآن بالنسبة للتحول إلى الوقود الحيوي ، والذي قد يؤدي إلى اضطرابات في موارد الغذاء العالمي ، أو كما هو الشأن بالنسبة لاستغلال طاقة الرياح عن طريق إنشاء مايعرف باسم ((مزارع الرياح)) ، وخاصة بالقرب من شواطئ البحار الواسعة المفتوحة والمحيطات ، ولكن حتى هذه الوسيلة فبالرغم من قلة تكاليفها فإنها ليست مضمونة كل الأوقات ، إذ من الصعب التحكم في هبوب الرياح بالقوة الكافية طيلة الوقت ، أو كما هو الحال بالنسبة لإمكان توليد الطاقة من أمواج البحار والمحيطات ، فبالرغم من وجاهة هذه الفكرة من النظرية فإن هناك من يصفها بأنها مجرد أسطورة خيالية ، ولم يبق بعد ذلك لدينا غير الشمس كمصدر مأمون ودائم وفعال لتوفير الطاقة اللازمة لآلاف القرون ، وإن كانت المسألة لاتزال في حاجة إلى الكثير من البحوث ، بل إن هنالك من يتساءل حول إذا ما كانت كل تلك المصادر البديلة تستطيع أن توفر من الطاقة مايعوض معدلات الاستهلاك المتزايدة ، نتيجة للتقدم التكنولوجي الهائل وازدياد احتياجات البشر في المستقبل .

رســـالـــة بـــرشـــلـــونـــة

فريدة النقاش

يستطيع زائر برشلونة للمرة الأولى مثلي أن يلحظ بسرعة كيف أن أهل كاتالونيا معتزون اعتزازا زائدا بقوميتهم ولغتهم الخاصة وحيث تدعو مجموعة أحزاب لانفصال كاتالونيا عن إسبانيا، والفارق بين الحركة القومية الكاتالونية السلمية وحركة إقليم الباسك التي تدعو بدورها للانفصال، أن في الباسك حركة مسلحة قامت على مدى التاريخ الحديث خاصة منذ سقوط حكم فرانكو الدكتاتوري عام ١٩٧٥ بعمليات مسلحة بما في ذلك ضد المدنيين في القطارات والمقاهي والشوارع، ومؤخرا قام حزب «بيلدو» في الباسك شرق إسبانيا بإدانة العمل المسلح وهي الإدانة التي ساعدته على استعادة شرعيته وعمله العلني بعد أن كانت المحكمة قد جمدته بعد عملية مسلحة كبيرة في مطار مدريد.

نعود إلى برشلونة التي بدأت رحلتي إليها بدعوة من الجمعية الكتالونية اللبنانية واتحاد النقابات الإسبانية الشيوعية لألقي محاضرة عن الثورة المصرية ووضع المرأة بعدها في مصر، وبدعوة من اتحاد النقابات الشيوعية سافرت إلى ساراكوزا عاصمة إقليم الأراجون واسمها الكامل ساراكوزا الحلوة أو بالأدق «ساركوزا اللذيذة» وهي فعلا مدينة حلوة بكل المقاييس هادئة ونظيفة لا يزيد سكانها على نصف مليون، وبها آثار شامخة للعرب والمسلمين، منها الكاتدرائية التي كانت مسجدا وتحولت إلى كنيسة ولكن بقيت فيها آثار الفن العربي الإسلامي بارزة، وكذلك قصر الجعفرية الذي تحول مقرا للحكومة وهناك أيضا ألقيت محاضرة عن المخاطر المحدقة بالثورة وأثرها على أوضاع النساء.

وفي المحاضرتين كان الجمهور منصتا بحب ومتسائلا عن الأوضاع في مصر، مبديا إعجابا واحتراما للشعب المصري وثورته، والجميع يريد أن يعرف كيف يمكن أن يساعد المصريين لتخطي المرحلة الحرجة وهزيمة ضغوط الثورة المضادة، وعبر كثيرون بشكل اعتذاري عن سوء تقدير سابق للعرب وقالوا إنهم بعد الثورات العربية يعيدون النظر في موقفهم.

نحن نسمي الإسكندرية «عروس البحر الأبيض المتوسط» وأستطيع الآن بعد أن قمت بجولة سياحية لمدة خمس ساعات في برشلونة التي عشت فيها أسبوعا كاملا أن أقول إن هناك عروسا أجمل على المتوسط هي عاصمة إقليم كاتالونيا الذي يضم سبعة ملايين نسمة، وهي واحدة من قوميات أربع: الكتلان والباسك جاليسيا وكاستيانو، وخوفا من انفصال القوميات قامت الدولة الإسبانية بتقسيم البلاد إلى ١٧ مقاطعة حتى تقطع الطريق على محاولات الاستقلال.

تظاهرة مليونية

كان من السهل علي أن أستعيد أجواء الفرح في ميدان التحرير طيلة الأيام الثمانية عشرة للثورة، حين شاركت في تظاهرة من ربع مليون مواطن كتالوني في «برشلونة» يرفعون أعلام اتحاد النقابات الإسبانية الشيوعية الذي يضم في صفوفه مليونين ومئتي ألف عضو من كل إسبانيا.. كنت شاهدة عليها ومشاركة فيها صباح السبت قبل الماضي، وكان الاتحاد بالمشاركة مع مئتي جمعية من مؤسسات المجتمع المدني قد نظم احتجاجا واعتراضا على سياسة اليمين الحاكم والاتجاه إلى إجراء استقطاعات من الحقوق الاجتماعية والاقتصادية للمواطنين، تنفيذا لسياسات الليبرالية الجديدة التي صاغها كل من البنك الدولي وصندوق النقد الدولي ومنظمة التجارة العالمية وهيئة المعونة الأمريكية ودوائر رأس المال العابر للقارات، وإحدى أولويات سياسات الليبرالية الجديدة هي تخفيض الإنفاق الحكومي على خدمات الصحة والتعليم والإسكان وإعانات البطالة.. وتصل البطالة في كتالونيا إلي ٢٠٪ من قوة العمل. وفي اسبانيا كلها ٢١٪ أي خمسة ملايين عاطل ٤٥٪ منهم من الشباب المتعلم.

ولم تكن حكومات اليمين وحدها هي التي طبقت هذه السياسات في أوروبا مؤخرا، وإنما حذت حذوها أيضا بعض الحكومات الاشتراكية الديمقراطية، وهكذا وجدت ردا على سؤال لم أكن قد سألته بعد لمحدثي من اتحاد النقابات حول توقع الجميع فوز اليمين في الانتخابات البلدية وبرلمانات الأقاليم التي جرت فعلا في ٢٢ من هذا الشهر.. كانت الإجابة هي أن اليسار الاشتراكي الديمقراطي.. وهو يحكم إسبانيا الآن يتبع سياسات اليمين وقد قرر الجمهور في كتالونيا أن يعاقبه، وسوف يحدث امتناع كبير عن التصويت من قبيل عدم الثقة والاحتجاج ليخسر اليسار الذي سبق أن أرسل بأحد عشر نائبا إلى البرلمان الكتالوني من أصل مئة وثلاثين، ويمثل الأحد عشر نائبا اتحاد اليسار الذي يتكون من الحزب الشيوعي والحزب الاشتراكي والخضر، ويرأس اتحاد اليسار الآن بلدية برشلونة، وإذا ما خابت توقعات الجميع فسوف ينجح اتحاد اليسار مرة أخرى في السيطرة على البلدية، ويحافظ علي مقاعده في برلمان الإقليم وستجري الانتخابات العامة التشريعية في كل إسبانيا في مارس/ آذار من العام القادم، وإذا لم يعدل اليسار الحاكم الآن من سياساته، ويتخذ موقفا حازما ضد تخفيض الإنفاق الحكومي على الخدمات سوف يخسر.

ويذكرنا هذا الاتجاه القوي لليمين بما حدث في بريطانيا في ظل حكومة «توني بلير» التي تبنت كل سياسات اليمين رغم أنها حكومة عمالية وصوت لها الناخبون على هذا الأساس وهو ما أدى بالناخبين إلى الإطاحة بها بعد ذلك وانتخاب حزب المحافظين الذي تحالف مع حزب محافظ آخر هو الأحرار الديمقراطي ليتولى الحكم، وهو يتبع الآن نفس السياسات التي اتبعها العمال الذين غيروا رئيسهم بعد ذلك.

ورغم الأزمة العميقة التي تهدد اليسار وجدنا في لقائنا مع قسم التعاون الدولي في بلدية برشلونة – اليسارية حتي الآن – استعدادا كبيرا لترجمة التزام برشلونة إزاء بقية العالم بروح أممية حقيقية وقد حدثت هذه الترجمة فعلا في شكل زيادة متواصلة في التعاون من أجل التنمية وتمويل هذا التعاون كمصلحة للمدينة والإقليم وإسبانيا كلها وللعالم أيضا، وكحق من حقوق البشر يحتاج إلى هيكلية وأفق دائم من أجل التغيير والتحول، باعتبار التنمية عملا متعدد الأبعاد يهدف إلى إشباع حاجات الناس وتطوير حياتهم عبر زيادة قدراتهم، وهو ما يعني استئصال الأسباب البنيوية للفقر ومحاربة الظلم وأشكال انعدام المساواة بتطوير وتلاحم قدرات الشعوب، فعندما تستطيع الشعوب السيطرة على خيراتها وتوزيعها بصورة عادلة فإنما هي تحمي سيادتها.

الزراعة والصناعة

برزت من كل اللقاءات فكرة استعادة الاهتمام بالزراعة والصناعة كأساس لتطوير القاعدة الإنتاجية في كل من شمال المتوسط وجنوبه وكأساس أيضا للتمسك بالحقوق الاجتماعية والاقتصادية للكادحين.

ويتداول الإسبان عامة هذا الرقم الذي برز في التظاهرة ضد الاستقطاعات من ميزانيات الصحة والتعليم وإعانة البطالة.. إن كبار رجال الأعمال راكموا أرباحا خلال عام واحد قدرها خمسون مليار يورو، ومع ذلك يريدون تخفيض الإنفاق الاجتماعي وتخفيض أجور العمال، بالإضافة إلى أن ٢٥٪ من أرباح العمل غير النظامي لا تذهب إلى الدولة بل لأصحاب الأعمال.

وفي أدبيات البنك الدولي فإن أكبر بلدين فيهما عمل غير نظامي هما إيطاليا وإسبانيا.. وفي إسبانيا خربت الأزمة قطاعي الصناعة والبناء، ورجال الأعمال لا يسعون فقط لفرض هذه الاستقطاعات وإنما أيضا لإقامة علاقات فردية بين العمال والمؤسسات التي يعملون فيها بإضعاف دور النقابات، ولكن النقابات تقاوم ببسالة.

الهجرة والعنصرية

ويركز اليمين في دعايته الانتخابية على قضية الهجرة، بهدف إقناع العمال والعاملين عامة أن المهاجرين هم سبب الأزمة، وأن دفاع اليسار عن المهاجرين يؤدي لضياع فرص العمل التي يمكن أن تتوفر لسكان البلاد، بينما يرى اليسار أنه لابد من فتح الباب أمام المهاجرين خاصة هولاء الذين يأتون من إفريقيا وأمريكا اللاتينية ومن رومانيا وبعض بلدان أوروبا الشرقية وجنوب الصحراء واتفاقية شنجن المعقودة بين بلدان الاتحاد الأوروبي لا تنطبق فقط على تنقل البضائع وإنما أيضا على تنقل الأفراد.

ويستخدم اليمين المتطرف خطابا عنصريا بغيضا ضد المهاجرين في محاولة منه لصرف الأنظار عن حقيقة الأزمة العميقة التي تواجه النظام الرأسمالي كله، وهو يسعى لأن يلقي بعبء هذه الأزمة على الطبقة العاملة والكادحين عامة والمهاجرين والنساء، وقد تضاعف فعلا عدد العاطلين في السنة الأخيرة في كتالونيا وإسبانيا كلها.

ولع مصري

أستطيع بعد أن قضيت عشرة أيام في إسبانيا وزرت إقليمين من أقاليمها الأربعة كاتالونيا وأراجون، أن أقول إن لدى قطاع كبير من الرأي العام الإسباني ولعا مصريا وعربيا، فهم ينظرون بإعجاب ودهشة للثورات العربية خاصة لطابعها السلمي الأساسي رغم عنف الأنظمة الدكتاتورية، ويريدون أن يطرقوا كل الأبواب ليمدوا يد العون لهذه الثورات لأن شعورا خفيا بالذنب قد برز لأنهم أساءوا الظن سابقا في شعوبنا ولم يتصوروا أبدا أنها يمكن أن تثور بل تطيح بأعتى النظم الدكتاتورية.

ويرون أنه قد آن الأوان للوصول إلى حل عادل لقضية الشعب الفلسطيني، ويعيدون النظر في الفكرة القائلة إن «إسرائيل» هي الديمقراطية الوحيدة في الشرق الأوسط، لكنهم يتساءلون أيضا – وبقلق – عن صعود الإسلام السياسي ودلالة هذا الصعود في مصر وعدد من البلدان الغربية، وحين سئلت هل سيكون النموذج الإيراني أم النموذج التركي هو اختياركم، قلت بثقة إن الديمقراطية التي سنبنيها – رغم الصعوبات وضراوة الثورة المضادة – ستكون نموذجا عربيا لا يقلد إلا نفسه وإن استفاد من كل تجارب الآخرين، وتمنيت أن تكون إجابتي صحيحة.

نادي برشلونة

قبل أن أغادر «برشلونة» حرصت بناء على طلب من أحباء أن أذهب إلى المنطقة التي يقع فيها نادي برشلونة الشهير الذي تأسس سنة ١٩٩٩ وهو يسع ١٣٠ ألف متفرج ويلعب دورا في الحياة الاجتماعية للبلاد كما توقعت وجدت صورا كبيرة للاعب «ميسي» ذي الأصل الأرجنتيني وهو نجم «برشلونة»، وقال لي مرافقي هناك ألعاب أخرى في النادي.. وفي طريق العودة رأيت متسولا واحدا، وحدث نفس الشيء في ساراكوزا، وفي الحالتين بدا الشحاذان من المهاجرين الذين يريد الحزب الشعبي اليميني الحاكم في كاتالونيا أن يطردهم من البلاد.

الإخوان.. والقوى الأخرى

حسين عبد الرازق

لم يكن افتتاح «المركز العام» الجديد لجماعة الإخوان المسلمين – الذي حالت ارتباطات سابقة بيني وبين تلبية دعوتهم لي لحضور حفل الافتتاح – مجرد انتقال من مبنى إلى مبنى آخر أكبر وأوسع، بل كان لهذا الافتتاح دلالة رمزية واضحة لانتقال الجماعة من حالة الحصار والتضييق والملاحقة الأمنية والمحاكمات العسكرية خلال العقود الماضية إلى حالة جديدة تماما تكتسب فيها الجماعة الاعتراف الرسمي بعد أن كانت «جماعة محظورة» رسميا رغم وجودها وانتشارها على أرض الواقع.

والوجود الرسمي والعلني لجماعة الإخوان المسلمين وانتهاء الحصار والقمع الذي تعرضت له وأكسبها تعاطفا عاما حتى من بعض خصومها السياسيين، يمثل تحديا وامتحانا صعبا لها، فالعمل العلني وحرية الحركة يختلف عن العمل شبه «السري» والمحاصر.

وخلال الأيام الماضية وقعت جماعة الإخوان – بعض قادتها على الأصح – في ممارسات أثارت مخاوف وقلق أحزاب وقوى سياسية وكتاب وساسة، وأعادت إلى الأذهان شكوكا قديمة كانت الجماعة قد نجحت في التخفيف منها وإزالتها لدى كثيرين.

لقد اختارت جماعة الإخوان المسلمين في أكثر من مناسبة مخالفة مواقف الأحزاب والقوى السياسية الديمقراطية، وتصرفت ليست كقوة سياسية ديمقراطية ولكن كجزء من السلطة الحاكمة، بداية من قبول المشاركة في اللجنة التي شكلها المجلس الأعلى للقوات المسلحة لإدخال تعديلات على دستور ١٩٧١ الذي سقط بقيام ثورة ٢٥ يناير وتولي المجلس العسكري للسلطة والمساهمة في تصوير الاستفتاء على هذه التعديلات علي أنه استفتاء على الإيمان والكفر!، واستراح بعض قادتها لما تردد عن علاقة خاصة تربط الجماعة بالمجلس الأعلى للقوات المسلحة أو بعض أعضائه، بل عملوا على تأكيدها والترويج لها، وقاطعوا مؤتمر الوفاق القومي دون سبب منطقي.

وأكدت الجماعة إصرارها على إدخال الدين في السياسة والخلط بين ما هو مقدس وما هو دنيوي يقبل الاختلاف والصراع، فالحزب الجديد الذي أعلنت الجماعة عن تأسيسه «حزب الحرية والعدالة» وقالت إنه حزب مدني، يقوم على «مرجعية إسلامية» أي على أسس دينية، مما يحوله في النهاية إلى حزب ديني، ويعيد للأذهان ما ورد في مشروع برنامج الحزب الذي أعلنته الجماعة عام ٢٠٠٧ من ضرورة عرض مشروعات القوانين قبل إصدارها على لجنة من كبار العلماء لتقرر مدى اتفاقها مع مبادئ الشريعة الإسلامية، رغم أن بعض قادة الجماعة كان قد أعلن بعد ذلك أن هذه فكرة تم العدول عنها.

وفي المؤتمر الجماهيري الذي نظمته الجماعة مساء الجمعة الماضي قال صبحي صالح العضو القيادي للجماعة «نحن كجماعة لا نعترف بمفاهيم مسلم ليبرالي ومسلم علماني ومسلم يساري، نحن لا نعرف إلا مسلم يكفيه دينه عمن سواه من المناهج».. متراجعين عما ورد في مبادرة المرشد العام (مارس ٢٠٠٤) من التمسك بنظام جمهوري برلماني دستوري ديمقراطي، بل بشرنا بالعودة إلى ما كان سائدا في مصر في ظل «الدولة العثمانية»!

الغريب أن الجماعة تدعو في نفس الوقت على لسان د. أحمد أبو بركة عضو الكتلة البرلمانية للإخوان المسلمين في برلمان ٢٠٠٥ «كل القوى السياسية في المجتمع المصري الإسلامية منها والليبرالية إلى التوافق على مشروع وطني وقائمة وطنية واحدة» كما قال في الندوة التي نظمها «مركز الشرق للدراسات الإقليمية والاستراتيجية في مطلع هذا الأسبوع».

ويبدو أن إحساس جماعة «الإخوان المسلمين» بالقوة والسلطة أفقدها توازنها وأنساها أن الرهان على السلطة – أي سلطة – رهان قصير الأجل، وأن الغرور والتعالي يؤدي بأصحابه إلى التهلكة.